ظاهرة كراهية الإسلام

الجذور والحلول

معتز الخطيب*

ملخّص

تعميم ثنائية الإسلام والغرب مغلوطة والعلاقة بينهما اعتراها تعقيد وتشويه. هذه العلاقة مرّت بمراحل عديدة متباينة، ومسارات مختلفة. أما الخوف الحالي من الإسلام فيعود إلى الإسلام السياسي والصورة الثقافية وهجرة المسلمين والارهاب ووسائل الإعلام. ولتصحيح الصورة لابد من جهود واسعة لإخراج الإسلام من الاعتبارات الامنية في الغرب وفي داخل أنظمة العالم الإسلامي.

موضوع الإسلام والغرب ـ أو العالم الإسلامي وأوضاع المسلمين في الغرب ـ شغل اهتمامًا كبيرًا في العقود الماضية، وخاصة منذ نهاية السبعينيات، وقد نشطت تلك الموجة مطلع الألفية الثالثة للميلاد.

* - مدير تحرير الملتقى الفكري للإبداع - دولة قطر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ينقسم هذا البحث إلى خمسة محاور، وخاتمة. تتوزع المحاور على بيان ملحوظات مبدئية تخص الموضوع المبحوث، ثم استعراض تاريخ صورة الإسلام والمسلمين عبر العصور التاريخية، بدءاً من العصور الوسطى وانتهاء بالقرن العشرين. ويأتي المحور الثالث ليلخّص مسارات العلاقة بين الإسلام والغرب، بينما يتحدث المحور الرابع عن العداء الحالي للإسلام ومصادره، ثم يقدم المحور الخامس سبل تصحيح الصورة.

في المحور الأول (ثلاث ملحوظات مبدئية)، تمت الإشارة إلى أن ثنائية «الإسلام والغرب» مغلوطة، وأنه كثيرًا ما يغلب «التعميم» حيث الحديث عن ثنائية إسلام وغرب، وثالث الملحوظات أن تلك العلاقة اعتراها الكثير من الشوائب والتعقيدات والتشويه أيضًا.

وفي المحور الثاني (تاريخ الصورة)، تم استعراض تاريخ طويل حكَم تلك العلاقة المتوترة والمتذبذبة، بدءاً من العصور الوسطى التي تجلى فيها الصراع بين عالمين: العالم المسيحي وعالم المسلمين، وذلك ما بين القرنين الثامن والثاني عشر الميلاديين. ثم مرحلة نمو وذبول صورة للإسلام أقل عداء فيما بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، ثم مرحلة التعايش السلمي والتقارب حين أصبح العدو شريكًا، وذلك ما بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، ثم مرحلة تحولت فيها العلاقة من التعايش السلمي إلى الموضوعية، وذلك ما بين القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، ثم مرحلة عصر النزعة العقلية وذلك ما بين القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، ثم مرحلة نزعة التعلّق بالغرائب والإمبريالية والتخصص في القرن التاسع عشر، ثم مرحلة اهتزاز العصبية العرقية الأوربية في القرن العشرين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتناول المحور الثالث من البحث (مسارات العلاقة) التي تلخّصت في الآتي:

* الاهتمام الأوربي بالإسلام نشأ من الخوف من منافس للمسيحية يتميز بوحدته وصلابته وبقوته الجبارة ثقافيًا وعسكريًا.

* مسار برز فيه تأثر الفكري الأوربي بالفكر العربي ، ثقافيًا وعلميًا، وخاصة من خلال العلوم الطبيعية والفيزيائية والرياضيات والفلسفة، بل والصناعات والأدب وخاصة في إسبانيا وصقلية، خاصة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر.

* مسار برز فيه الصراع السياسي بين الطرفين، وأبرز المراحل دلالة عليه هيمنة العالم الإسلامي التي بدأت سنة ٦٢٢م واستمرت حتى سقوط غرناطة ١٤٩٢م، والحروب الصليبية وتهديد الإمبراطورية العثمانية لأوربا، ثم الاستعمار الغربي لأغلب العالم الاسلامي لاحقًا.

* مسار التفوق والهيمنة، والذي برزت فيه نزعة احتقار الآخر الشرقي، والتمركز الغربي حول الذات ونوازع الهيمنة على الشرق بثرواته وثقافاته وناسه، وهو المسار الذي لا يزال مستمرًا حتى الآن بشكل بارز، مع خفوت المسار العقدي اللاهوتي.

أما المحور الرابع فكان للحديث عن الخوف الحالي من الإسلام ومصادره، الذي يعود إلى عوامل عدة متضافرة معًا، لخصتها في خمسة هي: ما سمي بالإسلام السياسي، والمسألة الثقافية التي تتبدى من خلال الصور السائدة لدى كل طرف عن الآخر، وهجرة المسلمين إلى الغرب وتزايد أعدادهم وحضورهم هناك، ثم الإرهاب وتأثير وسائل الإعلام.

وفي المحور الخامس تم الحديث عن سبل تصحيح الصورة وفقًا لبيان أسباب العداء الحالي للإسلام والمسلمين، ففيما يخص حركات الإسلام

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السياسي، لابد من التركيز على التنوع الكبير الذي يحيط بها، وكذلك لابد من وضع سياسة قادرة على إخراج «الإسلام» من الاعتبارات «الأمنية» في السياسات الغربية تجاه الإسلام، وكذلك في الأنظمة القائمة.

وفيما يخص المسألة الثقافية، فإن لإشاعة التنوع الفكري الذي يزخر به العالم الاسلامي دوراً كبيراً في التخفيف من حدة تلك الأطروحات الشمولية التي تزعم نهاية التاريخ أو صراع الحضارات، أو العداء المطلق للحداثة، إلى غير ذلك من المقولات، وكذلك مجابهة تلك الأطروحات الصدامية من منظار حقوقي، أي من منظار الحق في الاختلاف. وفي هذا السياق يتعين على بعض أشكال الخطاب الإسلامي التي تميل إلى عدائية مفرطة تجاه الغرب جملة وتفصيلاً أن تترفع عن ذلك، وتسلك خطابًا نقديًّا معرفيّا يقوم على فهم واستيعاب الأفكار الغربية والدخول في حوار نقدي معها، حتى يتسنى لنا المضيّ بمنطق الحق في النقد الإسلامي للأفكار الغربية.

أما مسلمو الغرب، فقد أثيرت حولهم مشكلات كثيرة، وإن مسؤولية كبيرة تقع على عاتقهم في تقديم نموذج صالح للمسلم الفاعل في المجتمع، الملتزم بالقيم والآداب، المندمج في محيطه الاجتماعي.

وفيما يخص الإرهاب فإنه يشكل معضلة شديدة التعقيد، ولا يتوقع أن يخفت صوته دون عمليات إصلاح سياسي وفكري معًا، يتم من خلاله إزالة أسباب التوتر والاحتقان، وقيام الدولة بوظائفها الأساسية في صيانة الحقوق وحفظ الدين، بالإضافة إلى تلك الجهود الفكرية التي توفرت على ترصّد ملامح فقه العنف، وجهدت في إزاحة الشرعية عنه.

لكن الجهد الأكبر الذي ينبغي أن يتم التركيز عليه يقع على الإعلام ووسائله، من خلال التواصل المباشر مع المعنيين لأجل صياغة سياسة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إعلامية مدروسة للحؤول دون استمرار تلك التحيزات في التغطية، ومراقبة وسائل الإعلام والأفكار التي تظهر من خلالها ومعالجتها بالشكل اللائق بها.

ثم جاءت الخاتمة التي انتهت إلى أن ثمة عاملاً إيجابيًا في النفق المظلم وهو أن علاقات شرق ـ غرب لم تعد تدور منذ أمد بعيد على الصعيد الديني، ومن هنا فإن إبراز العوامل غير الدينية وتحديدًا الثقافية، والفصل بينها وبين الدين، من شأنه أن يقرّب الهوة بين الطرفين. وأن هذه الآمال والأفكار لا يحملها أفراد، بل تقوم بها مؤسسات ومراكز دراسات وجهود ضخمة حتى يكون لها الأثر المرجو، في مستويات متعددة.

ويقترح البحث إنشاء مركز دراسات تابع لمجمع الفقه الاسلامي يختص بدراسات الإسلام والغرب، ويقوم بتوفير المصادر العلمية اللازمة للباحثين الغربيين ، ليتسنى لهم القيام بدراسات وافية تتمتع بالإحاطة والموضوعية والاعتماد على المصادر المعتمدة والمرجعية في الإسلام، ويقوم بمهمة التواصل مع مراكز البحث والدراسات الغربية التي تشتغل على الإسلام والعالم الإسلامي، وبحث سبل التعاون معها للتخفيف من حدة التصورات السائدة وتصحيح وجهتها، وإرشادها، كما يقوم بإطلاع تلك المراكز على حصيلة ما يخرج عن مجمع الفقه الإسلامي الدولي من قرارات واجتهادات علمية.

ظاهرة كراهية الإسلام: الجذور والحلول

يجب تحديد المشاكل ومناقشتها وإلقاء الضوء عليها بكل طريقة ممكنة حتى يتسنى تجاوزها أو التخفيف من حدتها على الأقل.

موضوع الإسلام والغرب أو العالم الإسلامي وأوضاع المسلمين في الغرب شغل اهتمامًا كبيرًا في العقود الماضية وخاصة منذ نهاية السبعينيات، وقد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نشطت تلك الموجة مطلع الألفية الثالثة للميلاد[١]. وذلك الاهتمام يرجع لاعتبارات متعددة، منها بروز الثورة الإسلامية الإيرانية ١٩٧٩م، والجهاد في أفغانستان ١٩٨٠م، وقضية سلمان رشدي ١٩٨٦م، ثم حرب الخليج (الفارسي) ١٩٩١م، والحرب في يوغوسلافيا السابقة ١٩٩٢م، وبروز الإسلام عاملاً سياسيًا في العالم الاسلامي[٢]، وبهذا دخل الإسلام بقدر أكبر في السياسات والمجتمع الاسلامي؛ باعتباره قوة عالمية مؤثرة ومحتملة خلال السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين. والعنصر المهم والبارز بالإضافة إلى ما سبق هو تدفق المهاجرين المسلمين إلى بلدان الاتحاد الأوربي منذ الستينيات، الأمر الذي فرض عليها العديد من التحديات التي سنشير لبعضها لاحقًا.

١- ثلاث ملحوظات مبدئية:

علاقة الغربيين بالإسلام، أو العلاقة بين العالم الاسلامي والغرب، علاقة متعددة الأبعاد مترامية الأطراف، شديدة التوتر.. والتنوع أيضًا. وهذا ما يجعل المتحدث فيها يقع في التردد والحيرة إزاء تركيبها وتعقيدها، وقلّما يتم تناولها بالشمول والتركيب اللائق بها، وبالمنهجية والموضوعية الكافية. وقبل إجمال ملامح تلك العلاقة يحسن إيراد ملحوظتين أساسيتين تخصّان ثنائية «الإسلام والغرب».

أولاهما: أن تلك الثنائية مغلوطة؛ إذ كيف تجوز المقارنة بين «الإسلام» بوصفه منظومة فكرية ودينية، وبين «الغرب» بوصفه رقعة جغرافية ممتدة يثور الجدل حول تحديدها على وجه الدقة، أو حتى بوصفه مفهوما جيوستراتيجياً؟. نعم نفهم المقارنة بين الإسلام والمسيحية، أو بين الشرق أو العالم الاسلامي والغرب.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الملحوظة الثانية التي تنبغي الإشارة إليها هنا هي أنه كثيرًا ما يغلب «التعميم» حين الحديث عن إسلام وغرب، وينزع الكاتبون من الطرفين إلى الحديث عن كتلة واحدة متجانسة متماسكة هي «الإسلام» أو «العالم الإسلامي» مقابل كتلة واحدة متجانسة هي «الغرب»، وهذا غير واقعي وتبسيطي إلى حد كبير، بل إنه بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م جرى الحديث عن أكثر من غرب، وعن انقسام الغرب على نفسه(٣).

وإذا أمكن لنا أن نضيف ملحوظة ثالثة فيمكن القول: إن تلك الصورة المتبادلة بين الشرق والغرب، لكل واحد عن الآخر، اعتراها الكثير من الشوائب والتعقيدات والتشويه أيضًا، فالنظر الفاحص المدقّق والمؤرّخ المستقصي سيجد أن «الغرب» و«الشرق» كليهما اعتراهما كثير من الخيال وقليل من الواقع، فكما أن الغرب كامن في رؤوسنا كذلك الشرق كامن في رؤسهم. لكن كيف لنا ولهم أن نحدد ـ بوضوح ـ ما هو واقعي وما هو خيالي من فيض ذاتنا وذاتهم؟(٤).

٢- تاريخ الصورة:

ثمة تاريخ طويل يحكم تلك العلاقة المتوترة والمتذبذبة، وقد تتبع مكسيم ردونسون «الصورة الغربية» عن الإسلام والمسلمين، وقسمها إلى محطات هي:

١- العصور الوسطى التي تجلّى فيها الصراع بين عالمين: العالم المسيحي وعالم المسلمين. وذلك ما بين القرنين الثامن والثاني عشر الميلاديين.

٢- نمو وذبول صورة للإسلام أقل عداء فيما بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٣- التعايش السلمي والتقارب: العدو يصبح شريكًا، وذلك ما بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين.

٤- من التعايش السلمي إلى الموضوعية وذلك ما بين القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين.

٦- نزعة التعلق بالغرائب والإمبريالية والتخصص: في القرن التاسع عشر.

٧- العصبية العرقية الأوربية تهتز في القرن العشرين[٥].

ويمكن إجمال تاريخ متغيرات الصورة الغربية عن الإسلام بشكل مكثف بأنه مع مطالع العصور الوسطى كان ينظر إلى المسلمين على أنهم «مجرد كارثة»، ولم تصبح الصورة أكثر دقة إلا في القرن الحادي عشر؛ ولم تبرز صورة الإسلام نتيجة الحروب الصليبية؛ بقدر ما برزت نتيجة الوحدة الأيديولوجية التي تكونت ـ ببطء ـ في العالم المسيحي اللاتيني، وقد أدت هذه الوحدة إلى رؤية أوضح لمعالم العدو، كما أدت إلى تضافر الجهود نحو الحروب الصليبية.

وفي الواقع لم يكن لدى أوربا المسيحية صورة واحدة عن العالم المعادي الذي كانت في صدام معه، بل كان لديها عدة صور. ويمكن أن نميز بصورة تقريبية بين ثلاث نواح لرد فعلهم إزاءه؛ فقد كان العالم الاسلامي ـ قبل كل شيء ـ بنية سياسية أيديولوجية عدائية، ولكنه كان أيضا حضارة مختلفة، وإقليمًا اقتصاديًا غريبًا. هذه النواحي كثيرًا ما أثارت اهتمامًا متفاوتًا وردود فعل مختلفة حتى لدى ذات الناس أنفسهم.

أوجدت الحروب الصليبية حاجة كبيرة وملحة للحصول على صورة كاملة ومسلّية ومرضية لأيديولوجيا الخصوم. وكان رجل الشارع يرغب في صورة تبين الصفة الكريهة للإسلام عن طريق تمثيله بشكله الفجّ، على أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تكون في الوقت نفسه مرسومة بشكل يرضي الذوق الأدبي الميال إلى كل ما ماهو غريب، وهو ميل يشكل سمة بارزة في جميع الأعمال في ذلك الوقت. وهكذا أخذ الكتاب اللاتينيون على عاتقهم بين عامي ١١٠٠م وعام ١١٤٠م إشباع هذه الحاجة لدى الإنسان العامي، وأخذوا يوجهون اهتمامهم نحو حياة محمد(ص) دون أي اعتبار للدقة[٦] فأطلقوا العنان «لجهل الخيال المنتصر» كما جاء في كلمات ر.و ساوثرن (R.W.Southern) . بل إن غيلبرت دونوجنت قال: «لا جناح على الإنسان إذا ذكر بالسوء من يفوق خبثه كل سوء يمكن أن يتصوره المرء».

وكما هو الحال دائمًا، فإن الرؤية التي ترسمها الأعمال التي تخاطب عامة الناس لابد أنها قد أسهمت في تكوين الصورة التي حفظتها الأجيال اللاحقة؛ أكثر من الرؤية التي تبنيها الأعمال ذات الصبغة الجدية والعلمية، ولقد قدر لهذه الصورة أن تزداد زخرفًا في الكثير من الأعمال الأدبية.

ولا يلقى المرء موقفًا موضوعيًا إلا في مجال مختلف تمامًا لا يمت إلى الدين الإسلامي إلا بصلة بعيدة وهو العلم الطبيعي. ومن هنا ظهرت الترجمات اللاتينية للأعمال الأساسية القديمة التي كانت موجودة بالعربية. ولم يجر البحث في المخطوطات العربية عن صورة الإسلام أو العالم الإسلامي، بل عن المعرفة الموضوعية للطبيعة.

بعد ذلك تمت ترجمات لبعض النصوص العربية وللقرآن[٧]، ولقيت تلك المجموعات رواجًا واسعًا نوعًا ما، ولكنها لم تستخدم إلى الحد الذي كان يمكن أن تستخدم به، فلم يظهر أن لها فائدة في الصراعات الجارية، خصوصًا أن الجدل الديني كان يستهدف مسلمين خرافيين كانوا يبادون بسهولة على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الورق، وفي الواقع يبدو أن الهدف إنما كان تزويد المسيحيين بحجج سليمة لتثبيت إيمانهم(٨). ثم إن الحالة العقلية للغرب اللاتيني لم تكن مشجعة على الاهتمام بمذاهب دينية في حد ذاتها كتلك التي كانت موجودة في الشرق الإسلامي.

إلا أنه كان هناك مجال آخر التقت فيه عدة تيارات من الاهتمام، واكتشف اللاتين فيه صورة أخرى للإسلام؛ صورة كانت مغايرة إلى حد بارز لمفاهيمهم الدينية المتحيزة، هذا المجال هو الفلسفة، وهكذا أخذت تتشكل في أذهان المفكرين الغربيين صورة أخرى للعالم الإسلامي بوصفه مهدًا لفلاسفة عظام، وكانت تلك صورة مضادة تمامًا للصورة السابقة، صورة الكيان السياسي الذي يسيطر عليه دين معادٍ ومغلوط، وهي الصورة التي خلقتها الخرافات السخيفة والكريهة في أذهان الناس.

تراكم المعلومات الصحيحة عن الإسلام وأصوله، وكذلك عن الشعوب الإسلامية والاتصالات المتزايدة على الصعيدين السياسي والتجاري، والتقدير الذي نشأ عن ذلك في بعض الأحيان، والتقدير العميق للمذاهب العلمية والفلسفية التي صدرت عن البلاد الإسلامية، كل هذه الأمور انضافت إلى التطور الداخلي البطيء للعقلية الغربية، وأدت إلى إحداث تغيير في الزاوية التي أصبحت تنظر من خلالها إلى العالم الأجنبي، لكن العنصر الأساسي في هذا التطور ـ بحسب رودنسون ـ كان تحول العالم اللاتيني والاتجاهات العربية نحو علمنة الأيديولوجيات، وقد طرأ تغير تدريجي على الصورة «الهجومية الوحشية لعدو شيطاني»، ومما ساعد من سرعة التقدم في هذا الاتجاه: الشعور بالخطر المغولي واكتشاف عالم وثني غير الإسلام من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جهة، ومن جهة أخرى انتشار الانقسامات على المستوى الروحي ضمن العالم المسيحي، فازدادت قوة الشعور بأن للإسلام المفهوم الأساسي نفسه في الدين وهو التوحيد.

لكن هذا التوجه لم يطل أمده؛ فقد تحدث روجر بيكون وريمون ليل عن إحلال الجهود التبشيرية محلّ المساعي العسكرية، إلا أن التغيرات والمخططات السياسية التي كانت تحيكها كل أمة على حدة في أوربا، والانقاسمات، كل ذلك جعل أوربا اللاتينية المنهمكة في صراعاتها الداخلية والتي كانت تتقدم على الصعيد الثقافي لا تعتبر الصراع العقائدي مع الإسلام ذا أهمية بالغة، بل أخذت تفقد اهتمامها به. على أن هذا لم يمنع ـ بحال من الأحوال ـ الاقتباسات الثقافية عن الشرق الإسلامي من التكاثر أكثر من أي وقت مضى.

ومنذ نهاية القرن الرابع عشر أدّى نموّ الإمبراطورية العثمانية على حساب البلقان المسيحي إلى بعث الاهتمام بالدين الإسلامي، وكان الأتراك العثمانيون خطرًا كبيرًا، غير أنهم في هذا القرن كانوا يعتبرون خطرًا سياسيًا أوثقافيًا أكثر مما هو خطر عقائدي أيديولوجي. ومن هنا نشأت صلات سياسية معها، ومنذ ذلك الوقت أصبحت التحالفات والحياد والحرب مع العثمانيين (الذين ينظر إليهم كقوة مثل غيرها بل أوربية أحياناً) تقوم على اعتبارات سياسية لا علاقة لها بالعقيدة الدينية المسيحية.

وبالرغم من أن هذه العقيدة بقيت دينًا تقدسه القلوب بقوة، فقد ساد الاعتقاد أنه يمكن تعليقه ـ مؤقتًا كما كان يعتقد ـ أمام التحركات السياسية الخطيرة. وهكذا اندمج الأتراك على الصعيد السياسي في الجو الأوربي.

أصبحت الدراسة الموضوعية للشرق الإسلامي أيسر؛ جراء القرب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والاتصالات السياسية الوثيقة والعلاقات الاقتصادية المتزايدة والأعداد الكبيرة من الرحالة والمبشرين الذين كانوا يزورون الشرق، ومن جراء انحسار السيطرة العقائدية للدين المسيحي في أوربا. وشكل ذلك بالنسبة لرجال السياسة والتجار حاجة ماسة أكثر من السابق. فأخذت دراسات وصفية مفصلة ودقيقة ومتزنة وموضوعية ـ على قدر الإمكان ـ تتسرب بعد الدراسة التي قام بها أرنولد فون هارف عام ١٤٩٦م. فلم تعد أنماط الحياة تدرس من حيث اختلافها الواسع أو الضيّق عن المثل الأخلاقية المسيحية، وصار نظام الإمبراطورية العثمانية السياسي والإداري والعسكري موضع دراسات جدية، كثيراً ما كانت نقدية، ولكنها كانت تشيد أيضًا بفعالية هذا النظام من عدة نواح.

وفي بداية القرن الثامن عشر لم يعد أحد ينظر إلى الإسلام على أنه أرض أعداء المسيح، بل أصبح بصورة أساسية حضارة غريبة ورائعة وموجودة في جو خيالي فيه الجن العصاة من أخيار وأشرار. وأصبح الناس يرون الدين الذي ينافس المسيحية بنظرة محايدة، بل بشيء من التعاطف، ولعلهم كانوا يبحثون فيه بصورة لا شعورية ـ ويجدون فيه بالطبع ـ عن نفس قيم الاتجاه العقلاني الجديد الذي كان مخالفًا للمسيحية(٩).

وفي القرن السابع عشر انبرى كثير من الكتاب للدفاع عن الإسلام ضد الإجحاف الذي ناله في العصور الوسطى، وضد مجادلات المنتقصين من قدره، وأثبتوا قيمة وإخلاص التقوى الإسلامية. من أمثال ريتشارد سيموت (Richard Simon)، وأ. رلاند (A.Reland) وبيير بيل (P.Bayle).

وانتقل الجيل التالي من الموضوعية إلى مرحلة الإعجاب، وهكذا بدأ النظر إلى الإسلام كدين عقلاني بعيد كل البعد عن العقائد المسيحية المخالفة للعقل،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وينطوي على حدّ أدنى من المفاهيم الأسطورية والطقوس الصوفية. ثم إنه وفّق بين الدعوة إلى حياة أخلاقية وبين حاجات الجسد والحواس والحياة في المجتمع.

وهكذا بدأت تتكامل معالم صورة، هي صورة محمد(ص) الحاكم المتسامح والحكيم والمشرع. والواقع أن القرن الثامن عشر كان ينظر إلى الشرق الإسلامي نظرة أخوية متفهمة.

في القرن التاسع عشر ظهرت ثلاثة اتجاهات:

١- شعور نفعي وإمبريالي بالتفوق الغربي مليء بالازدراء للحضارة الأخرى.

٢- وميل رومانسي إلى كل ما هو غريب يبتهج بالشرق السحري الذي كان فقره المتزايد يعطي سحره مذاقًا خاصًا.

٣- وتخصص علمي انصب معظم اهتمامه على العصور الماضية.

على أن هذه الاتجاهات الثلاثة كانت متكاملة فيما بينها أكثر منها متعارضة.

والميل إلى كل ما هو غريب لم ينشأ من تغير العلاقات بين الشرق والغرب، بل من التحول الداخلي الذي طرأ على حساسية الغرب التي أصبحت تتوق إلى الغريب والعجيب.

حينها، كان الشرق الإسلامي لا يزال عدوًا، ولكنه محكوم عليه بالهزيمة، وكانت البلاد الشرقية أشبه بالشهود المنهارين لماض عريق. فقد كان المرء يستطيع أن يستمتع بترف امتداحهم في الوقت الذي كان فيه السياسيون ورجال الأعمال يفعلون كل ما في وسعهم للإسراع في انهيارهم. ولم يكن إمكان صحوهم ولحاقهم بالعصر الحديث يثير أي حماسة. بل إنهم يفقدون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خلال عملية تحديثهم نكهة الغرابة التي كانت مبعث سحرهم.

لقد كانت الظاهرة التي لعبت الدور الأكبر في تحديد طبيعة النظر الأوربية إلى الشرق، وخصوصًا بعد منتصف القرن التاسع عشر هي صعود الإمبريالية وتوحيد القوى الأوربية في مواجهة الجزء الأكبر من العالم الإسلامي(١٠). كان التفوق الأوربي من النواحي الاقتصادية والفنية والعسكرية والسياسية والثقافية طاغيًا، في الوقت الذي كان فيه الشرق يغرق في التخلّف. وأصبحت إيران والإمبراطورية العثمانية محميتين أوربيتين، بينما كان نطاق الاستعمار المباشر ينتشر في أواسط آسيا لمصلحة الروس وفي المغرب والمشرق العثماني لمصلحة البريطانيين والفرنسيين والإيطاليين، وخصوصًا بعد سنة ١٨٨١م حين احتُلت مصر وتونس. وكان من المحتّم أن يؤدي هذا كلّه إلى تشجيع التمركز حول الذات، وهو صفة طبيعية في الأوربيين كانت موجودة دائمًا، ولكنها الآن صبغة تتسم بالازدراء الواضح للآخرين.

وقد شجع الوضع المهين الذي وجد العالم الإسلامي نفسه فيه، المبشرين المسيحيين وفتح لهم طرقًا جديدة. وعزا المبشرون نجاحات الأمم الأوربية إلى الدين المسيحي مثلما عزوا إخفاق العالم الإسلامي إلى الإسلام. فصوّرت المسيحية على أنها ملائمة ـ بطبيعتها ـ للتقدم، وقرن الإسلام بالركود الثقافي والتخلّف. وأصبح الهجوم على الإسلام على أشد ما يكون. وبُعثت حُجَجُ العصور الوسطى بعد أن أضيف إليها زخارف عصرية، وصُورت الجماعات الدينية الإسلامية ـ بصورة خاصة ـ على أنها شبكة من التنظيمات الخطرة يغذيها حقد بربري على الحضارة.

كانت كل ظاهرة مناهضة للإمبريالية ـ حتى لو كان مبعثها مشاعر محلية خالصة ـ تُعزى إلى تلك الحركة الإسلامية(١١)، وكانت الكلمة نفسها توحي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالتطلع الإسلامي إلى السيطرة وبأيديولوجية عدوانية، وبمؤامرة على نطاق عالمي.

وبفضل الصحافة والأدب الشعبيين وكتب الأطفال، أخذت هذه النظرة تتسرب إلى عقول الجماهير الغفيرة من الأوربيين، ولم تخل من تأثير في العلماء أنفسهم، وخصوصًا حين كانوا ينبرون لتقديم النصح إلى أولئك الذين كانوا يوجهون سياسات الحكومات الاستعمارية. أما أولئك العلماء الذين اهتموا كثيرًا بالدراسات المعاصرة والذين كانت تشغل بالهم فكرة الجامعة الإسلامية فإنهم كانوا يميلون لأن يروا فيها حركة رجعية.

أدت حرب ١٩١٤ - ١٩١٨م إلى تزعزع ثقة الحضارة الأوربية بنفسها من حيث إيمانها بالتقدم غير المحدود في الاتجاه الذي كانت تسير فيه، وبذا تزعزع التعصب العرقي الأوربي(١٢). ودلت الثورة العربية وحركة أتاتورك وتخلّص الأمم المختلفة من نير الإمبراطورية الروسية القديمة وثورات الهند وأندونيسيا وغيرها على أن السيطرة الأوربية يمكن أن تصبح موضع الشك. وهنا نشر شبلنجر بعيد الحرب كتابه المذهل «تدهور الغرب»، وكتب لوتروب ستودارد الأمريكي «العالم الجديد للإسلام» الذي أظهر فيه أن تغيرات عميقة أخذت تكوّن «شرقًا جديدًا غريبًا» هو ـ إلى حد كبير ـ نتيجة للتأثيرات الغربية. وكانت الصورة التي رسمها هي من حيث الأساس صورة عالم يدور حول نواة غامضة مختلفة أساسًا، عدوانية منفرة إلى حد ما، قوامها جهل ووحشية لايكاد يقدر على كبح جماحهما دين أو عرف أو نخبة مستنيرة قليلة. ولكنه أفسح في المجال لعوامل عالمية مثل الصراع ضد التدخل الأجنبي.

وقد ظلت تلك النظرة إلى الأمور بصورة تقريبية هي نظرة الجمهور

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأوربي والأمريكي فيما عدا أن التأكيد لدى الجمهور كان بالأحرى على العامل الأول وهو الوحشية الكامنة وغير المكبوحة والتعصب الذي أطلق له العنان لمواجهة الدفع الحضاري الآتي من الغرب.

ولقد أدت موجة مناهضة الاستعمار العارمة إلى إحداث تغيير في النظرة إلى العالم الإسلامي لدى أوساط ضيقة، لكنها واسعة النفوذ في المجتمع الغربي[١٣]. فالحركة الاستقلالية أثارت الكثير من التعاطف في الأوساط الحكومية والاقتصادية الغربية. وفي عام ١٩٤٥م أشاد مجلس الفاتيكان المسكوني «بالحقائق» التي جاء بها الإسلام والتي تتعلق بالله وقدرته ويسوع ومريم والأنبياء والمرسلين. بينما كان الاعتقاد السائد في العصور الوسطى أن تلك «الحقائق» كانت أقنعة استطاع «الدجل الإسلامي» أن ينفذ من خلالها. هذه الثورة في التفكير جعلت التقييم المسيحي لمحمد(ص) حساسة؛ فلم يعد بإمكانهم الزعم الكاذب بأنه «محتال شيطاني» كما كان عليه الحال في العصور الوسطى.

على أن العالم الاسلامي لم يكن يثير الاهتمام لأسباب سياسية أو عسكرية فقط، أو من وجهة نظر دينية أو علمية؛ فقد أثار أيضًا اهتمامات متعددة في الأذهان التي تتوق للقصص الغريبة والعجيبة.

٣- مسارات العلاقة

هكذا كانت العلاقة بين الغرب والشرق الإسلامي علاقة صراع في مسارها الرئيس، اكتنفته حروب وعمليات تشويه مقصود، حركها في بدايتها وأثناءها جدالات دينية لاهوتية، ثم تحولت في القرون الأخيرة إلى علاقة «تفوّق» وهيمنة في ظل الاستعمار والإمبريالية[١٤]، وفي هذا السياق يمكن إدراج

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مقولة الخطر الإسلامي التي سادت في الثمانينيات والتسعينيات مع ذهاب الخطر الأحمر / الشيوعي، وهو ما لقي رواجًا كبيرًا في الكتابات والصحف حينها[١٥]. وصولاً لمقولة صدام الحضارات لهنتنغتون في منتصف التسعينيات، والتي يرى فيها أن التصادم واقع بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية التي يمثلها الغرب الآن.

ولقد لقيت هاتان المقولتان نقدًا شديدًا من الشرق والغرب[١٦]، حتى وقعت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م فأعادت الجدل من جديد وبكثافة عالية، حول العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي، فظهرت مقولات «إنهم يكرهوننا» و«إنهم يكرهون العالم الحر» وصولاً لمقولة «الإرهاب الاسلامي» والربط بين الإسلام والإرهاب في حرب معلنة أطلق عليها «حرب الأفكار».

إن المسارات البارزة التي يمكن رسمها لتلك العلاقة تتلخص في الآتي:

* الاهتمام الأوربي بالإسلام نشأ من الخوف من منافس للمسيحية يتميز بوحدته وصلابته وبقوته الجبارة ثقافيًا وعسكريّا. وكان أوائل الباحثين الأوربيين في الإسلام ـ على نحو ما بينه مؤرخون كثيرون ـ من أرباب المجادلات القروسطية الذين كتبوا ما كتبوه لدرء جحافل المسلمين التي تهددهم وخطر الارتداد عن الدين المسيحي، وقد استمرت هذه التوليفة من الخوف والعداء بصورة ما حتى يومنا هذا، سواء في الاهتمام العلمي أو غير العلمي بالإسلام، وهو الذي ينظر إليه على أنه دين ينتمي إلى منطقة معينة من مناطق العالم ـ هي الشرق ـ وهي التي غدت تمثل الثقل الموازن ـ خياليًا وجغرافيًا وتاريخيّا ـ لأوربا أو ضد أوربا والغرب[١٧].

* مسار برز فيه تأثر الفكري الأوربي بالفكر العربي، ثقافيًّا وعلميًّا، وخاصة من خلال العلوم الطبيعية والفيزيائية والرياضيات والفلسفة، بل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والصناعات والأدب وخاصة في إسبانيا وصقلية، خاصة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر[١٨].

* مسار برز فيه الصراع السياسي بين الطرفين، وأبرز المراحل دلالة عليه هيمنة العالم الاسلامي التي بدأت سنة ٦٢٢م واستمرت حتى سقوط غرناطة ١٤٩٢م، والحروب الصليبية وتهديد الإمبراطورية العثمانية لأوربا، ثم الاستعمار الغربي لأغلب العالم الإسلامي لاحقًا.

* مسار التفوق والهيمنة، والذي برزت فيه نزعة احتقار الآخر الشرقي، والتمركز الغربي حول الذات ونوازع الهيمنة على الشرق بثرواته وثقافاته وناسه، وهو المسار الذي لا يزال مستمرًا حتى الآن بشكل بارز، مع خفوت المسار العقدي اللاهوتي. يقول تيري هنتش: «الشعور بالتفوق بات طبيعيًا جدًّا بالنسبة للأوربي لدرجة أنه من المستحيل عليه تقريبًا أن يرى أو أن يفعل من دونه. فهذا الشعور يلون كل موقفه بما في ذلك ما ينطوي عليه من حسن وفادة ومن تنوير[١٩].

هذا التأريخ للصورة بتشعباتها ومتغيراتها ـ على طوله مكثفًا ـ هَدَفْنا من خلاله إلى إظهار عدة أمور، من بينها أن هذا الثراء في تعقيدات الصورة ومتغيراتها تبعًا لعوامل سياسية وثقافية وفكرية داخلية، أي داخل الغرب نفسه ومن خلال تطوراته الفكرية، وخارجية جراء تبدل موازين القوى، هذا كله من شأنه أن يخلخل التصورات الصلبة والكلية والمعممة، عن العداء أو عن الغرب نفسه في علاقته بالاسلام والمسلمين. فضلا عن أن هذا التنوع والتغير جراء امتداد التاريخ وسعة الجغرافيا، وغناء عالم الأفكار وتبدلاته، يساعد على تحليل عوامل التغير التبدل، وإدراك أسرارها؛ برؤية متجاوزة لتلك الرؤية الوصفية التأريخية التي كتب بها مكسيم رودنسون دراسته[٢٠]،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رؤية تحمل على دراسة الظاهرة بوصفها إشكالية، لا تأريخ الظاهرة بما هي ظاهرة وتطوراتها ومساراتها فقط.

٤- الخوف الحالي من الإسلام ومصادره:

يعود الخوف الحالي من الإسلام إلى عوامل عدة متضافرة معًا، سنحاول الإشارة إليها بإيجاز:

أـ الإسلام السياسي *

يعود هذا العامل إلى ثلاثينيات القرن العشرين، مع ظهور ما سمّي بـ «الإسلام السياسي» أو الحركات الإسلامية، مع الشيخ حسن البنا سنة ١٩٢٨م[٢١]، فهذه الحركات قدّمت الإسلام بمفهوم متجاوز لمفهوم الدين فقط، بل قدمته بوصفه «نظامًا شاملاً» اقتصاديًا واجتماعيًا وسياسيًا وقضائيًا، وبهذا يرى الدارسون الغربيون أن الإسلام بهذه الصفة يتم تقديمه بوصفه أيديولوجية جديدة للمقاومة[٢٢]، يتناول الهوية والثقافة والدين معًا. وفي هذا التصور تهديد لمصالح الغرب الذي يقدم أنموذجه الحضاري على أنه «نهاية التاريخ»، ويسعى إلى تنميط العالم وفق نموذجه، بما يحقق هيمنته الكاملة على باقي العالم؛ خاصة أن مجمل هذه الحركات يسعى إلى الوصول إلى السلطة لإقامة «الدولة الإسلامية». وفي الواقع لا يفرق الباحثون الغربيون بين الحركات الإسلامية التي توصف جميعها بأنها «أصولية»[٢٣].

---

* - لا يوجد في الواقع إسلام سياسي وإسلام غير سياسي. فاصطلاح الإسلام السياسي أشاعه الغرب لأسباب معروفة. الإسلام ـ بنظرة موضوعية ـ يهتمّ بشؤون الحياة وتحقيق كرامة الإنسان والأمّة، ويرفض أي إذلال أو إخضاع أو استعباد للمسلمين، وهذا هو توجّه سياسي بالمعنى الحقيقي لكلمة السياسة (التحرير).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلا أن الحركات العنيفة تحديدًا، والخطابات المعادية للغرب بإطلاق، شكلت أحد أبرز العوامل في تكوين الصورة السلبية عن الإسلام في الغرب، وتوّج ذلك وقوع أحداث ١١ سبتمبر، التي أنعشت المخيلة الغربية وأفسحت المجال للتيار المتطرف المعادي للعرب والمسلمين لبث سمومه وحقده.

وبالمجمل هناك مقاربتان لتفسير انبعاث الحركات الإسلامية تسودان هنا، الأولى منهما تعزو ظهور تلك الحركات إلى الإسلام كدين بالدرجة الأولى، وتهمل الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية في العالم العربي، ويعتبرون الإسلام نظامًا صارمًا لا يقبل التغير وغير متناغم مع الحداثة، وهو أيديولوجية سائدة في العالم الاسلامي، ومن ثم ففهم العالم الاسلامي لا يتطلب سوى دراسة النصوص الإسلامية والفتاوى التي يصدرها العلماء أو القادة الدينيون.

فيما ترى الثانية أن بعض سمات الإسلام جعلته مناسبًا كأداة لتصحيح التفاوت الاجتماعي والاقتصادي والسياسي القائم في المجتمعات المعنية، فالحركات نشأت كتجليات ثقافية ووطنية، وهي متوجهة لمجابهة المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تعاني منها مجتمعاتها، ولم يكن الغرض منها محاربة السيطرة الأجنبية[٢٤].

ب - المسألة الثقافية:

يشغل البعد الثقافي مكانة محورية في العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي، وهو ما يتبدّى من خلال الصور السائدة لدى كل طرف عن الآخر، والكيفية التي يشكل بها كل طرف الآخر ويرسمه من خلالها، ولعل أبرز ما يمكن استدعاؤه هنا مقولتان ذاع صيتهما في السنوات الأخيرة، هما: **أطروحة فوكوياما عن نهاية التاريخ** والتي يرى فيها أن النموذج الرأسمالي الليبرالي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هو أرقى ما يمكن أن تصل إليه البشرية، وما على باقي العالم إلا الانضمام إليه، ومقولة **هنتنغتون عن صدام الحضارات** والتي يرى فيها أن صراع الحضارات سيكون المصدر الرئيس للنزاعات في النظام العالمي الجديد، وسيكون هذا الصراع مقتصرًا على الثقافة الغربية من جهة، والثقافتين الإسلامية والكونفوشيوسية (في الصين وكوريا) من جهة أخرى. وعلى هذا فإن تلكما الثقافتين تشكلان خطرًا على الثقافة الغربية لأنهما لا ترغبان أو لا تستطيعان الانضمام إلى الغرب[٢٥].

وعلى هذا فالأطروحتان تعتمدان التأصيل الثقافي وإن كانت أهدافهما سياسية واستراتيجية. والإسلام فيهما «يمثل ـ في الداخل كما في الخارج ـ في أيامنا الأيديولوجية الوحيدة الكفيلة بتغذية رفض جذري للهيمنة الغربية، من دون أن تستعير أسلحتها الفكرية من الغرب»[٢٦].

وقد أدت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، إلى تمكن موضوع الصدام بين الحضارات من العقول، وأصبح يشكل بؤرة الاهتمام، بل إن البعض رأى أن الأحداث «أدت إلى تعميم مفهوم صراع الحضارات في عالمنا، عن طريق نفي وجود هذا الصراع، حيث إن العدد الكبير من المفكرين ورجال السياسة الذين أكدوا في الأيام والأسابيع والأشهر التي تلت الاعتداء أنه لا يمكن أن يكون هنالك صراع حضارات بين الإسلام والمسيحية، يثبت بما فيه الكفاية أن هذا المفهوم البدائي يسكن عقول الجميع»[٢٧]. وفي هذا السياق تأتي الكتب التي راحت تتحدث عن صراع حضاري، وكأن حدث سبتمبر أعطاها مصداقية تؤكد صحة مقولتها من خلال هذه الصورة الصدامية المتشخصة.

ومما يتصل بالمسألة الثقافية تلك الأطروحات التي سادت بعد أحداث سبتمبر في تفسير «الإرهاب الإسلامي» والتي تخلص إلى القول بحداثة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إسلامية مستحيلة أو شبه مستحيلة، وأن الإسلام ديانة ذات جوهر ثابت ومظهر متغير، وأن الأصولية تكوينية في الإسلام، وأن الهزائم المتطاولة للمسلمين، والإرهاب بوصفه انزعاجًا ثقافيّا، والإسلام بوصفه جذر تخلف وعنف أبديين، كل هذا يُضمر موقفًا معاديًا ومتنافرًا بين الحداثة والإسلام. بل إن لويس يرى في «أزمة الإسلام» أن الإرهاب الإسلامي يفسَّر بكونه موقفا عصابيًّا حادًّا إزاء حداثة مستحيلة تقتضي ـ في العمق ـ الانفصال عن المرجعية الإسلامية، ومعضلة الإسلام كما يراها هي في الامتزاج بين الدين والسلطة، فالإسلام ـ لديه ـ مشروع سياسي![٢٨].

في المقابل ثمة رأي يذهب ـ على النقيض من ذلك ـ إلى أن العداء بين العالم الإسلامي والغرب تسببت به **أوجه الشبه** أكثر مما تسببت به الاختلافات بين كلا الثقافتين. والتشابه الأول أن الحضارتين تدّعيان امتلاكهما أيديولوجية كونية في طبيعتها، علاوة على ذلك، المسلمون مقتنعون بأن نظامهم الديني يقدم بديلاً ملائمًا للديمقراطية والليبرالية الغربية.

وثمة قول يذهب إلى أن المسألة لا تتعلق بصراع الحضارات ولا بالشبه بينها، وإنما تنبع من **حاجة الغرب إلى عدو** لا غنى عنه من أجل تأكيد وتعريف هويته الخاصة، وهنا يقع تفسير: لماذا دأب الغرب بعد سقوط الشيوعية على تصوير الخطر الأخضر/ الإسلامي بديلا عن الخطر الأحمر. لكن هاليداي وآخرين يرفضون هذا التفسير ويعتبرونه خرافة[٢٩].

ج - المسلمون في الغرب:

من العوامل المؤثرة في كراهية الإسلام تزايد **هجرة المسلمين إلى الغرب**، خاصة خلال الستينيات من القرن العشرين والتي أثارت نقاشات اقتصادية واجتماعية في بداية الأمر، لكن منذ أوائل الثمانينيات ـ بعد الثورة الإسلامية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإيرانية ـ أخذ الإعلام يربط بين تلك النقاشات وبين ثقافة وديانة هؤلاء المهاجرين، فبرز النقاش حول ما إذا كانت قيم وثقافة هؤلاء تنسجم مع الثقافة الغربية، وفي هذا السياق تبرز مسائل عديدة من قبيل الحجاب وتعدد الزوجات والسباحة المختلطة وختان الإناث وإنشاء مدارس إسلامية إلى غير ذلك. بل إن الأمر لاحقًا تجاوز تلك النقاشات إلى مسائل الولاء والمواطنة ومدى تأثير الحركات الإسلامية في العالم الاسلامي على المسلمين داخل الاتحاد الأوربي، ثم جاءت أحداث سبتمبر فأدت إلى طرح مسألة الولاء للوطن بقوة، بل إن هنتنغتون قدم أطروحته الثانية عما أسماه «الهوية الأمريكية» التي يجب الحفاظ عليها، والتي تقوم على ركائز أربع أساسية، هي **العرق الأبيض، والإثنية الإنجليزية والدين المسيحي البروتستانتي، والثقافة الإنجليزية البروتستانتية**[٣٠].

إن موقف الغرب السلبي من المهاجرين المسلمين في أوربا يعود لسببين: أحدهما ـ وهو الأهم ـ الاختلاف العرقي، والعداء المتصاعد للمسلمين هناك يعود لرفض مجموعات معينة تقبّل حقيقة أن مختلف بلدان أوربا الغربية أصبحت دول هجرة، ومن ثم تخشى أن تفقد الإطار الثقافي في ظل التعددية الثقافية التي تتفاعل داخلها ونشأة التمايزات.

والسبب الثاني لتدهور الموقف الغربي من المسلمين يمكن أن يعزى لتحريف إحصائي كما في بلدان أوربا حيث ظهر تزايد علماني وتزايد عدد المسلمين أيضًا، ويتناقص عدد أعضاء الكنيسة، وهذا يزيد من مخاوف «الأسلمة» في الغرب[٣١].

د - الإرهاب:

جنسية مرتكبي تفجيرات ١١ سبتمبر **المفترضين** استنهضت المخزون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الثقافي والصورة النمطية للإسلام والمسلمين، وحوّلت الاتهام إلى الدين نفسه، وفي أحسن الأحوال ثار التساؤل عن هذا الدين الذي يبيح لمعتنقيه مثل تلك الأفعال. وفي هذا كتب إدوارد سعيد: «قد أتمنى أن أقول: إن الفهم العام للشرق الأوسط وللعرب وللإسلام في أمريكا قد تحسن بعد ٩/١١، ولكنه لم يتحسن.. إن رفوف المكتبات الأمريكية بعد ١١ سبتمبر امتلأت بكتب مليئة بعناوين مهلهلة صارخة عن الإسلام والإرهاب والتهديد العربي والخطر الإسلامي»[٣٢].

لسنا نريد العودة إلى «الحرب الصليبية» التي تحدث عنها بوش فيما اعتُبر زلة لسان، وما أثارته من جدل واسع في العالم الاسلامي، بل التركيز تحديدًا على تلك التصريحات التي ألقت باللائمة على الإسلام الذي يبيح تلك الأفعال أو يشكل مرجعية هؤلاء المنفذين للهجوم. في حين باهى برنارد لويس في مقدمة كتابه «أزمة الإسلام» بأنه قد «بذل الرئيس بوش والسياسيون الغربيون الآخرون جهودًا عظيمة ليوضحوا أن الحرب التي ننهمك فيها هي حرب ضد الإرهاب وليست حرباً ضد العرب، ولا ضد المسلمين. إن رسالة أسامة بن لادن هي رسالة مضادة. فبالنسبة لبن لادن وهؤلاء الذين يتبعونه، فإن هذه حرب دينية، حرب في سبيل الإسلام ضد الكفار، ولذلك فهي بشكل حتمي، ضد الولايات المتحدة، القوة العظمى في عالم الكفار»[٣٣].

وكذلك شاريل بينارد التي قالت: «بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م مباشرة بدأ السياسيون وصناع القرار في الغرب بالإدلاء بتصريحات تؤكد قناعاتهم بأن الإسلام ليس ملومًا فيما حدث، ذلك لأن الإسلام قوة إيجابية في العالم، وكان دينًا للسلام والتسامح، حيث تحدثوا في المساجد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعقدوا اجتماعات واسعة مع علماء مسلمين، وقاموا بدعوة الشخصيات الدينية الإسلامية البارزة في افتتاح المناسبات العامة، كما استشهدوا بسور قرآنية في خطاباتهم، واعتبرت أن الصيغة النموذجية لهذا الخطاب الذي يبرئ ساحة الإسلام: خطاب بوش ٢٠٠٢م الذي قال فيه: «إن الإسلام دين يوفر الرفاهية لمليار من البشر حول العالم... لقد آخى الإسلام بين مختلف الأعراق فهو دين قائم على الحب لا على الكراهية». وأضافت بينارد أن هذا النهج لم يكن قاصراً على الولايات المتحدة بل كان سائدًا في أوربا أيضًا، وقد «انضم المجتمع الأكاديمي بسرعة إلى هذه الجهود»(٣٤).

وكان فريد هاليداي خصص فصلاً كاملاً لعداء الغرب للمسلمين رافضًا مقولة الإسلاموفوبيا والتي تعني خوف أو عداء الغربيين للإسلام، فهو يرى أنه ليس هناك عداء للإسلام كدين في الغرب، بالمعنى الصليبي للكلمة، رغم وجود بعض تسربات الإرث التاريخي والتصورات المتوارثة، لكن الأهم والسائد في رأيه هو موجات العداء للمسلمين كناس وليس للإسلام كدين ونظرية، وهو عداء ذو جذر سياسي واجتماعي وليس ثقافيًّا دينيًّا، وأغلب العداء مرتبط بالمهاجرين والظروف الاقتصادية، والى حد ما هنالك الجهل والتجهيل الذي أثارته نظرية «الإسلام الخطر البديل عن الشيوعية» بحسب رأي هاليدي(٣٥).

لكن بالمقابل لا يمكن تجاهل مواقف بعض قيادات اليمين الأمريكي المتدين تجاه الإسلام، والتي قال عنها ديفيد فروم ـ أحد كتّاب خطابات بوش سابقًا: «إن قيادات اليمين الأمريكي المتدين، الذين يمثلون أقوى القواعد الجماهيرية المساندة لبوش، شعروا بغضب شديد تجاه موقف بوش من الإسلام والمسلمين في أعقاب أحداث سبتمبر لأن بوش وصف الإسلام بأنه دين سلام»(٣٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وما يؤكد كلام ديفيد فروم تلك التصريحات التي صدرت من بعض هؤلاء والتي كانت بمثابة رد على كلام بوش، فقد رفض فرانكلين جراهام المستشار الديني للرئيس بوش وصفَ الإسلام بأنه «دين مسالم»، ووصف جيري فالويل الرسول(ص) بأنه «إرهابي»، وقال بات روبرتسون: «إن الإرهابيين لا يحرفون الإسلام، إنهم يطبقون ما في الإسلام»!

في الواقع، بعيدًا عن كل هذه التصريحات والتصرفات هنالك جو عام في أمريكا مشحون ضد الإسلام، فدانيال بايبس نفسه يذكر في افتتاح مقال له ما نصه: «(الإسلام شرّ). كانت هذه هي العبارة التي تركها بشكل مخالف للقانون أحد رجال المخابرات الأمريكية على روزنامة صلاة إسلامية، بعد مداهمته في الثامن عشر من يوليو لبيت واحد يُشتبه بأنه من عملاء القاعدة، في ديربورن ميشيغان. تلك الكتابة الفجّة تعكس وجهة نظر أصبحت تلقي رواجًا في الولايات المتحدة منذ الحادي عشر من أيلول»[٣٧].

وتقول جويس ديفس: «إن كلاًّ من صناع القرار والمواطنين الأمريكيين العاديين لديهم صورة مشوّهة عن الإسلام والعالم الإسلامي، وإنه لمن الصعب تغيير هذه الصورة النمطية السلبية، ومن الأصعب تجسير هذه الفجوة المعرفية بين الغرب والإسلام، خصوصًا أن غالبية الأمريكيين يحملون أفكارًا مسبقة معادية للإسلام والمسلمين، لا تجد أي أساس معرفي لها»، وترى أن على الولايات المتحدة أن تحاول الحد من تكرار الصورة النمطية عن الإسلام والمسلمين التي تجعل من المسلمين إرهابيين[٣٨].

الأمر نفسه يؤكده أكبر أحمد عالم الأنثروبولوجيا الذي يرى أن الإسلام «**تحت الحصار**» وهو حصار تفرضه رؤى سياسية واستراتيجية وإعلامية وإيديولوجيا عامة معادية للإسلام، ويعيب على دارسي الإسلام خاصة بعد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١١ سبتمبر نزعتهم الانتقائية في قراءة الإسلام، وخاصة في حقل الإعلام، ويقول: «إن خبراء الإعلام الجاهزين على الفور، كلهم مذنبون في مثل هذا الاستخدام الانتقائي للإسلام عمومًا وللقرآن الكريم لتدعيم وجهات نظرهم الجاهزة»[٣٩]. ويؤكد كذلك على أن رؤية العامة للإسلام تتسم برؤية تبسيطية تحصر الإسلام بالعنف والإرهاب. بل إن الأنثربولوجي إيمانويل تود قال: «إن الإسلام المحافظ شغف باللغة الدارجة بمفهوم الإرهاب الذي يرغب كثيرون في أن يروه شاملا جميع العالم»[٤٠].

هـ ـ تأثير وسائل الإعلام

تلعب وسائل الإعلام الغربية دورًا كبيرًا في تنشيط واستمرار تلك الصورة العدائية للإسلام والمسلمين، فعلى سبيل المثال، وفي شهر تموز ٢٠٠٥، هاجم المحامي راؤول فيلدر شخصية الرسول محمد(ص) مضيفاً: «هذا (الإسلام) دين كراهية.. هذا دين قتل». وذلك أثناء حلقة من برنامج حواري، وما كان من جاكي مايسون المذيع في شبكة «وستود وان» أكبر شبكات الإذاعة الأمريكية إلا أن أيّده قائلا:«هذه معلومات مثيرة لا يعرفها أحد تقريبًا.. الجميع يعتقدون أن (الإسلام) دين مشروع ينادي بالحب والأخوة.. الحقيقة هي أن الإرهابيين يعكسون دينهم ويتبعون دينهم.. إنهم يتبعون أوامر الدين مباشرة من القرآن». وأضاف: «كل الدين الإسلامي يدعو إلى، ويعلّم، الكراهية والإرهاب والقتل ولا أحد يعلم ذلك، وقد حان الوقت لأن يعلموا ذلك عن (الإسلام).. القرآن يعبر بخمسين أسلوبًا عن الكراهية والحقد والعداء والقتل، (القرآن) موهوب للإرهاب».

وفي يوليو ٢٠٠٥ أدلى «مايكل جرام»، أحد مقدمي البرامج الحوارية في إذاعة «دبليو إم إيه إل» الأمريكية، في أحد برامجه بتصريحات قال فيها:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

«الإسلام منظمة إرهابية» و«الإسلام في حرب مع أمريكا» و«المشكلة ليست في التطرف.. الإسلام هو المشكلة» و«نحن في حرب مع منظمة إرهابية تدعى الإسلام».

فوسائل الإعلام هنا تمارس دورًا بارزًا في مثل هذا الابتذال فيما يخص الإسلام والمسلمين، ويشير بحث من مصادر مختلفة إلى أن طريقة كتابة تقارير وسائل الإعلام الغربية عن المسلمين والإسلام والأقليات العرقية على العموم لا تتطرق إلى الكثير من الأشياء المطلوب معرفتها عن هذه الجماعات(٤١).

وعلى سبيل المثال فقد درست «إليزابيث بول» دور وسائل الإعلام البريطانية في نشر صور سلبية عن الإسلام والمسلمين، واستنتجت أن وسائل الإعلام تعمم بشكل ساحق ما يتعلق بهذه المجموعات، فالإسلام ينظر إليه كشيء قديم الطراز ويشكل خطرًا على المجتمع البريطاني، كما يتم وصف المسلمين بأنهم مختلفون غير منطقيين ولا يقدرون على الاندماج في المجتمع.

ويعود إسهام وسائل الإعلام في خلق تلك الصورة السلبية عن المسلمين من خلال(٤٢):

١- تقديم مفهوم ثقافي جامد وغاية في التبسيط عن تلك الجماعات، فهي تشير بسطحية للثقافة الإسلامية الكلاسيكية لتفسير سلوك المسلمين في العصر الحديث، بشكل يبدو فيه الدين وحده مسؤولاً عن مظاهر وسلوك لمسلمين.

٢- ذكر الأصل العرقي أو الانتماء الديني للذين يرتكبون جرائم أو بتصنيف النزاعات الإقليمية والعرقية الراهنة كنزاعات دينية. وكذلك في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اعتبار أن أي شخص يمثل الرأي الرسمي للدين، دون تدقيق في اختيار الخبراء.

وترى إليزابيث بوول[٤٣] **أن الخطاب الاستشراقي مايزال حاضرًا بقوة في اللغة الإعلامية البريطانية** عندما تتعرض للإسلام والمسلمين وقضاياهم. ومعنى ذلك أن مجموعة واسعة من المواقف المسبقة تجاه المسلمين وثقافتهم هي التي تؤسس للعقلية الجماعية للجمهور البريطاني، حين يكون الإسلام أو أتباعه هم موضع الحديث أوالبحث. ويكرس الخطاب الاستشراقي أفهامًا عمومية عن سكان العالم الإسلامي، سواء من ناحية حياتهم الاجتماعية (القمع الأبوي والسلطوي!)، أو طبيعة العلاقات بين الرجل والمرأة (تحكم الرجل بالمرأة وتعدد الزوجات!)، أو طبيعة الحكم السياسي (الاستبداد الشرقي!)، أو عدم تواؤم الإسلام والمسلمين مع المفاهيم السياسية والثقافية الحديثة (كالديمقراطية وحقوق الإنسان!).

وفي الواقع ترجع هذه المشاكل إلى عدة عوامل هي[٤٤]:

١ - التحيز الذي يغذيه الصحفيون كأعضاء في المجتمع ويوجهونه نحو المسلمين، فلا شك أن تغطيتهم ستتأثر سلبًا في هذه الحالة، فهم يميلون لتقديم الأخبار بطريقة تتماشى مع آرائهم الخاصة ومعايير وقيم الجماعة التي ينتمون إليها.

٢- قيمة الأخبار تنبع من مدى اختلاف الرسالة الإخبارية عما هو سائد في المجتمع، أي من غرابتها، للفت الاهتمام والإثارة، ولهذا يميل الصحفيون إلى **التركيز على ما هو غريب** وسيء، ويركزون على الاختلافات بين الإسلام والمسيحية والمجتمع الغربي.

وقد تعرضت إليزابيث بول لمسألة الخوف من الإسلام (الإسلاموفوبيا)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والإعلام، وكيف يتم تضخيمها والنفخ فيها. فالمشكلة هنا تكمن في أن الإعلام يبحث عن الإثارة ويتابعها، ويبحث في أدق تفاصيل القصص المتعلقة بها. ويؤدي هذا ـ عادة وفي خضم التنافس للحصول على الخبر المثير ـ إلى انحدار في المعايير المهنية ومستوى التحري والتدقيق؛ مما يضخم من الأخبار الهامشية، ويعطي أهمية فائقة لأفراد وجهات غير ممثلة للتيار الأعرض من المسلمين. لكن النتيجة هي أن أصوات أولئك الأفراد؛ نظرًا لتطرفها وأحيانًا غرابيتها، تنتشر انتشارًا كاسحًا، وتكاد توحي بأنها التي تمثل الصوت الأكثر سماعًا في أوساط المسلمين. لهذا فإن الإعلام والأصوات المتطرفة في أوساط الجالية المسلمة يتقاسمان المسؤولية في إثارة الخوف من الإسلام وتشويه صورته العامة.

٣- عامة المراسلين يفتقدون المعرفة الكافية حول الإسلام، وحجم التنوع الكبير الذي فيه، كما أن ضغط الوقت الذي يعمل في ظله المراسل لا يساعد على فهم تعقيدات التاريخ الإسلامي وواقع المسلمين، وأين يمكن التفريق بين ما يعكس حقيقة الدين وما يعتبر تصرفًا شخصيًّا لبعض المسلمين.

هذه أبرز أسباب العداء للإسلام والمسلمين، والتي حاول فريد هاليداي حصرها في نوعين: **عداء استراتيجي وآخر شعبي**. فالأول موجود في الولايات المتحدة ويرتبط ويتغذى من مسائل مثل واردات البترول والأسلحة النووية والإرهاب، ويعود تاريخ هذا النوع ـ بحسبه ـ إلى السبعينيات كنتيجة لرفع أسعار النفط من قبل منظمة أوبك والثورة الإيرانية وأزمة الرهائن الأميركيين في طهران وتفجير مركز التجارة العالمي عام ١٩٩٣م، والتحليل المتحيز لهذه الأحداث من قبل الصحافة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما الثاني الشعبي فقد ظهر كردة فعل، ويتعلق بمسائل تتصل بوجود المسلمين في المجتمعات الأوربية مثل الاستيعاب والدمج العنصري، العرق، الحجاب،... وهذا النوع من العداء أصبح منذ الثمانينيات جزءاً من موقف مناهض للمهاجرين في أوربا الغربية(٤٥).

٥- سبل تصحيح الصورة:

بعد أحداث سبتمبر، ساد اتجاه حكومي وثقافي يطالب «بتحسين الصورة» جراء التشويه الذي وقع على الإسلام والمسلمين والتغطيات المتحيزة ضدهم، والاعتداءات التي وقعت عليهم بالجملة. وفي المقابل رأى آخرون أن مقولات تحسين الصورة لا تجدي نفعًا طارحين تساؤلات مفادها: ممن؟ ولمن؟ في إشارة إلى عدم جدوى ذلك؛ لأن التشويه مقصود أولا، ولأن المشكلة لا تُحلّ بعملية «تجميل» للواقع. وربما ذهب اتجاه ثالث إلى القول: ﴿ وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾. لكن المسألة أكثر تعقيدًا من هذا التبسيط المتعجل، فمن حيث المبدأ رأينا فيما سبق التعقيدات التي تلف الموضوع، والتنوع الكبير الذي يكتنف الغرب؛ فليس من الإنصاف التعامل معه بنظرة بسيطة كلية متجانسة.

ثم إن مسؤولية حمل الرسالة الإسلامية تفرض على معتنقيها تنقية صورتها مما علق بها من تشوّهات، سواء من الخصوم أم من الأبناء، وكلاهما واقع. وهنا يجب التفريق بين الإسلام بوصفه دينًا منزلاً، وبينه بوصفه ثقافة بشرية تتلون بحسب الجغرافية والتاريخ وعوالم الأفكار والعادات، وهذا الخلط هو الذي أوقع في مساوئ كثيرة، منها إحالة كل سلوكيات المسلمين إلى الدين نفسه، وتحميله المسؤولية كاملة، ومنها أن الخلط بينهما دفع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المستشرقين إلى شرذمة الإسلام إلى «إسلام آسيوي» وآخر «أوربي» وثالث «أمريكي» ورابع «عربي»...

وأمر آخر تفرضه مصالح الشريعة ونصوصها من حيث إن الصورة المشوهة عن الإسلام والمسلمين تؤول في نهاية الأمر إلى «الصد عن سبيل الله»، وهذا يوجب ـ وحده ـ تحمل المسؤولية لمعالجة تلك التشوهات أو المساهمة في ذلك.

ووفقًا لبيان أسباب العداء الحالي للإسلام والمسلمين كما سبق بيانها، فإنه يمكن تقسيم المقترحات كذلك أيضا بحيث تغطي تلك المجالات المتعددة.

ففيما يخص حركات الإسلام السياسي، فلابد من التركيز على التنوع الكبير الذي يحيط بها، وهناك محاولات جادة في هذا المجال من مثل ما قام به فرد هاليداي[٤٦]، وبروس لورانس الذي يقول: «وفي حين أن لا أحد بإمكانه الإنكار أن بعض المسلمين يقترفون أفعال عنف سأحاول إظهار كيف أن التنوعية في الإسلام تسمح ليس برد واحد، وإنما بعدد من الاستجابات الإسلامية على العنف»[٤٧].

وثمة أمر شديد الأهمية يجب الالتفات إليه هنا، وهو وضع سياسة قادرة على إخراج «الإسلام» من الاعتبارات «الأمنية» في السياسات الغربية تجاه الإسلام، وكذلك في الأنظمة القائمة. وهو أمر بالغ الصعوبة، لأن النظر إلى الإسلام باعتباره مشكلة «أمنية» والتعامل معه على هذا الأساس يفترض مسبقًا أنه مصدر للمشاكل والخطر، ثم لا يتيح أي إمكانية للتعامل معه خارج تلك الدائرة. وما من شك أن الذي حشر الإسلام في هذه الزاوية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الضيقة الحركات التي تمارس العنف باسم الإسلام، وتلك الخطابات العدائية للعالم بأسره والتي تصوّر الإسلام على أنه معاد لكل منجزات الفكر المعاصر.

وفيما **يخص المسألة الثقافية**، فإن لإشاعة التنوع الفكري الذي يزخر به العالم الإسلامي دورًا كبيرًا في التخفيف من حدة تلك الأطروحات الشمولية التي تزعم نهاية التاريخ أو صراع الحضارات، أو العداء المطلق للحداثة، إلى غير ذلك من المقولات. فالعالم الإسلامي يزخر بنتاج فكري كبير حول تلك القضايا، وقدم مقولات تجديدية كثيرة رغبة في الإسهام في العالم المعاصر والاندماج فيه. وإن إشاعة المعرفة بين الغرب بتلك التطورات التي يشهدها الفكر الإسلامي من شأنها أن تخفف من حدة التوتر وتقطع الطريق على تلك الأطروحات الصدامية.

أمر آخر تجب الإشارة إليه هنا، وهو مجابهة تلك الأطروحات الصدامية من منظار حقوقي، أي من منظار الحق في الاختلاف[٤٨]. صحيح أن كل حضارة تبني هويتها على قاعدة الاستبعاد، «لكن الذي هو خاص بالغرب ليس الاستبعاد ولا حتى البقاء أعمى تجاه الاستبعاد الذي يمارسه،.. إن الخاص بالحضارة الغربية في أفضل ما عندها هوأنها تريد ـ بكل نزاهة ـ أن تقوم أخيرًا بالعكس، وهوأن تكون مقتنعة في صميمها بأنها تحتوي أكثر مما يستبعد، وأنها في أحسن الأحوال تقوم بذلك مع احترام الاختلاف»[٤٩]. فالمتعين هنا هو إظهار ما يتم استبعاده ـ عمدًا ـ، على الشكل الذي قام به إدوارد سعيد مثلا فيما يخص الاستشراق الذي قام بتعريته؛ بوصفه قام لخدمة أهداف استعمارية وليس عِلْمًا.

ومن هنا يتعين على بعض أشكال الخطاب الإسلامي التي تميل إلى عدائية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مفرطة تجاه الغرب جملة وتفصيلاً أن تترفع عن ذلك، **وتسلك خطابًا نقديًا معرفيًا يقوم على فَهم** واستيعاب **الأفكار الغربية**، والدخول في حوار نقدي معها، حتى يتسنى لنا المضيّ بمنطق الحق في النقد الإسلامي للأفكار الغربية، وكذلك فيما يخص «النقد الإسلامي للمعايير الديمقراطية الليبرالية الغربية الذي يمثل إعادة طرح مشروعة لأسئلة تتعلق بالإطار السياسي الملائم للمجتمعات الحديثة»(٥٠).

إن النسبية الثقافية التي تلجأ إلى فهم الأنماط الثقافية والأفكار في سياقاتها الزمانية والمكانية، تفرض التسامح والتفهم للاختلافات أو حتى الانشقاقات التي تحصل بين الأنماط الثقافية المختلفة. والحق في الاختلاف ينبغي أن يكون عنوان تواصل بين الجماعات، فليس المطلوب من العالم بأسره أن يكون نسخة واحدة مكررة: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ، إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود ١١٨-١١٩).

أعتقد أن هذه الأفكار من شأنها أن تخفف من حدة التوتر بين الغرب والعالم الإسلامي، ذلك التوتر الذي يحصر العلاقة على الشكل التالي: هيمنة وتفوق من قبل الغرب، ورفض ومقاومة من قبل المسلمين، وفي هذه الحالة يشكل الإسلام «أيديولوجية رفض». فخروج الطرفين من هذا المنطق التقابلي كفيل بتخفيف حدة التوتر.

أما مسلمو الغرب، فقد أثيرت حولهم مشكلات كثيرة، لا يتسع المقام لمعالجتها، لكن طرحت مقولات عدة تخصهم، فعلى مستوى الحكومات الغربية تم طرح مقولة «الدمج والاندماج»، فقد دفعت التساؤلات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والتخوفات عن مدى ارتباطهم بوطنهم الأصلي والجماعات الإسلامية فيه، ومدى ولائهم للوطن الذي يعيشون فيه، إلى اتّباع سياسة إدماج، في المقابل أدت اختلافات الثقافة والدين وتطورات الحياة الغربية إلى خلق جملة من التحديات أمام المسلم القادم من ثقافة مغايرة، أو الذي يقلّد مرجعية من خارج واقعه الذي يعيش فيه، فنشأت مقولة «فقه الأقليات» وإيجاد مرجعية خاصة لأولئك المسلمين (مجلس الإفتاء الأوربي) لإيجاد حلول لتلك المشكلات. غير أن هناك من تجاوز مسألة «الأقليات» إلى «الاندماج» بحيث يكون المرء مسلمًا وأوربيًا معًا، على معنى المواطنة(٥١).

لكن لابد من القول: إن ثمة عوائق عالقة تواجه مسلمي الغرب، إذ «إن الواقع يشهد، بأن الإسلام الأوروبي واقع فريسة للولع الأمني من جانب، ولشهوة السيطرة من جانب آخر»(٥٢). إذ يشكل المسلمون في الغرب مسألة أمنية تثير العديد من المخاوف والقلق لدى الحكومات الغربية، وكذلك تمارس بعض الأنظمة في الشرق محاولات للسيطرة على المسلمين في الغرب عبر وسائل مختلفة، الأمر الذي يزيد من تعقيدات الوضع. فضلا عن المشكلات الداخلية بين المسلمين أنفسهم والتي لا تعكس صورة إيجابية عن الإسلام(٥٣).

إن مسؤولية كبيرة تقع على عاتق مسلمي الغرب في تقديم نموذج صالح للمسلم الفاعل في المجتمع، الملتزم بالقيم والآداب، المندمج في محيطه الاجتماعي.

وفيما يخص الإرهاب فإنه يشكل معضلة شديدة التعقيد، أفردت لها كتابًا خاصًّا، وبيّنت أنه لا يمكن أن يتوقع أن يخفت صوته دون عمليات إصلاح

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سياسي وفكري معًا، يتم من خلاله إزالة أسباب التوتر والاحتقـان، وقيـام الدولة بوظائفها الأساسية في صيانة الحقوق وحفظ الدين، بالإضافة إلى تلك الجهود الفكرية التي توفرت على ترصّد ملامح فقه العنف وجهدت في إزاحة الشرعية عنه.

لكن الجهد الأكبر الذي ينبغي أن يتم التركيـز عليـه يقـع علـى الإعـلام ووسائله، من خلال التواصل المباشر مـع المعنـيين لأجـل صـياغة سياسـة إعلامية مدروسة للحؤول دون استمرار تلك التحيزات في التغطية، ومراقبـة وسائل الإعلام والأفكار التي تظهر من خلالها ومعالجتها بالشكل اللائق بهـا من خلال توضيح الأخطاء وكشف التحيزات ومخاطبـة المعنـيين وتزويـدهم بالمعرفة اللازمة التي تبين خطأ تصوراتهم، والتواصل مع الأجهزة الإعلاميـة والقائمين عليها أمر شديد الأهمية لتصحيح الأفكـار، وتزويـدهم بالمـصادر العلمية التي تعينهم على فهم الأفكار والمجتمعات المسلمة، حتى إن لزم الأمـر باللجوء إلى القضاء لإيقاف تلك التغطيات المتحيـزة أو المجتـزأة. ولابـد مـن وضع الإعلاميين أمام مسؤوليتهم في استمرار تلك الصور النمطية، التي تنزع إلى المثير والغريب، وتلجأ إلى التعميم والتنميط.

الأمر الذي لا يمكن إغفاله أيضا هـو ضـرورة تـوفير المعرفـة المعاصـرة والدراسات الدقيقة عن واقع المسلمين وتاريخهم وعلاقاتهم بالآخرين، وإبراز التطورات التي حدثت في عالمهم، ومدى التنوع الذي يكتنف عـالمهم وذلـك من أجل وضع حد لتنميطهم بصور بسيطة وعامة. «فالازدهار في الدراسات العلمية عن التاريخ الإسلامي سيتغلب في النهاية على الخوف والجهـل وقـد يقودنـا ـ مـسلمي الـشرق وغـير مـسلمي الغـرب ـ إلى مـستقبل خيّـر مشترك»[٥٤].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخاتمة:

إن المهمة صعبة، والحلول أشبه بالآمال، ولابد من الإقرار في الختام بأن «أمامنا ثلاثة عوامل جعلت من تفهم العرب والإسلام ـ حتى في أبسط الصور الممكنة ـ مسألة مشبعة بالدلالات السياسية العالية النبرة، أما العامل الأول فهو تاريخ التعصب الشائع في الغرب ضد العرب والإسلام، وهو الذي يتجلّى مباشرة في تاريخ الاستشراق، والعامل الثاني هو الصراع بين العرب والصهيونية الإسرائيلية، والعامل الثالث هو الانعدام شبه التام لأي موقف ثقافي يتيح للفرد التعاطف مع العرب أو الإسلام أو مناقشة أي منهما مناقشة غير انفعالية»[٥٥].

إلا أن ثمة عاملا إيجابيًا في النفق المظلم وهو أن علاقات شرق ـ غرب لم تعد تدور منذ أمد بعيد على الصعيد الديني»[٥٦]، ومن هنا فإن إبراز العوامل غير الدينية وتحديدًا الثقافية، والفصل بينها وبين الدين، من شأنه أن يقرّب الهوة بين الطرفين؛ خاصة إذا ما ضمّ إلى ذلك التأثير في وسائل الإعلام لإعادة إنتاج الصورة، ليس كما يريده الخيال أو الموروث بل كما يفرضه الواقع المتنوع.

بقي القول: إن هذه الآمال والأفكار لا يحملها أفراد، بل تقوم بها **مؤسسات ومراكز دراسات وجهود ضخمة**، حتى يكون لها الأثر المرجو، في مستويات متعددة. وأرجو ألا يقف الأمر عند حدود الآمال والتوصيات فقط، فالتوصيات إن لم تنهض بها أيد قادرة، لن يتغير من الواقع شيء، وإن الأمور إذا ما تركت سدى فنسبقى نلعن الظلام دون أن نوقد ولو شمعة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الهوامش:

١- انظر في إجمال رؤية ومناهج تلك الكتابات الصادرة بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، في: معتز الخطيب، الغضب الاسلامي: تفكيك العنف.. دراسة نقدية، دمشق: دار الفكر ص ١٠٩ وما بعد .

٢- انظر: واصف شديد، وسجورد فان كوننغسفيلد، الصورة السلبية للإسلام والمسلمين في الغرب، بيروت: مجلة الحياة الطيبة، عدد ٢٠، ٢٠٠٦، ص ١٥ .

٣- انظر في ذلك: معتز الخطيب، الغرب.. ميلاد المفهوم ونهايته، مقال منشور على موقع: الجزيرة. نت. «وتجدر الإشارة إلى أن هذا الوعي بالعالم الاسلامي بوصفه كتلة واحدة متجانسة متضامنة، وجد في العصور الوسطى، فبرغم كون الانقسامات الانقسامات السياسية للمسلمين معروفة في ذلك الوقت، ولكن كان هناك إدراك أنه يوجد وراء تلك الانقسامات تضامن أساسي، وأن الوحدة يمكن أن تعود في أي وقت ضد العالم المسيحي، وأن هنالك مواقف وعقيدة مشتركة تشكل لب هذه الأخوة». مكسيم ردنسون، الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية، بحث ضمن: جوزيف شاخت، كليفورد بوزورث (تصنيف)، تراث الإسلام، ترجمة السمهوري ومؤنس والعمد، الكويت: عالم المعرفة، ط ٣، ١٩٩٨م، ٣٦/١.

٤- من المهم هنا مراجعة الدراستين المثيرتين التاليتين: تييري هنتش، الشرق المتخيل: رؤية الغرب إلى الشرق المتوسطي، ترجمة غازي برّو وخليل خليل، بيروت: دار الفارابي، ط ١، ٢٠٠٤م، ونسيب الحسيني، الغرب المتخيّل: رؤية الآخر في الوجدان السياسي العربي، ترجمة غازي برو، بيروت: دار الفارابي، ط ١، ٢٠٠٥م .

٥- انظر: مكسيم رودنسون، الصورة الغربية، مرجع سابق، ص ٣١ - ٩٣. وتحديد القرون التاريخية لكل مرحلة هو تقريبي من كاتب هذه السطور، على ما في مسألة التحقيب التاريخي من اعتساف أو تجوّز. وسأعتمد بشكل رئيس على رودنسون في رسم تاريخ الصورة، داعما ذلك بمصادر عديدة رجعت إليها، وأحلت إليها في الهوامش .

٦- الدعاية الدينية ضد الإسلام في الغرب كوّنت الخلفية العقلية لكل الكتابات الغربية عن الإسلام وتاريخه في الماضي والحاضر معًا، ومن هنا كان الاهتمام منصبًا على الأصول الإسلامية، بينما أهملت أبواب أخرى ضخمة من تاريخ الإسلام حتى ستينيات القرن العشرين. وقد يكون ذلك ناتجًا عن عناية المجادلين الدينيين بهذا الموضوع دون غيره، لأن تلك الكتابات نبتت في بيئة تنافس ديني واحتكاك سياسي، ومن ثم لم تكن كتابات علمية. انظر:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فرد دونر، اتجاهات الكتابة الغربية عن تاريخ الإسلام: قراءة نقدية، سلطنة عمان: مجلة التسامح، عدد ٨، خريف ٢٠٠٤م، ص ٢٣٦ - ٢٣٨. وانظر أسباب التركيز على «أصول الإسلام» ص ٢٤٢ وقارن بـ: برنارد لويس، الإسلام في التاريخ: الأفكار والناس والأحداث في الشرق الأوسط، ترجمة مدحت طه، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ط ١، ٢٠٠٣، ص ١٩٠.

٧- يذكر رودنسون أن روبرت أوف كيتون الإنجليزي أتم ترجمته للقرآن سنة ١١٤٣م، ويذكر فرد دونر أن ترجمته ظهرت سنة ١١٤٩م. انظر: ردنسون، الصورة الغربية، مرجع سابق، ص ٤١، ودونر، اتجاهات الكتابة الغربية، مرجع سابق، ص ٢٣٧ .

٨- هذا ما يذكره رودنسون، ودونر أستاذ التاريخ بجامعة شيكاغو، وبرنارد لويس في «الإسلام في التاريخ» ص ١٨٩ .

٩- انظر: رودنسون، ص ٦١، ودونر، ص ٢٣٧ .

١٠- انظر: برنارد لويس، الإسلام في التاريخ، ص ٧٠ .

١١- ينتقد بروس لرونس أولئك الذين يرجون للإسلام على أنه دفع احتجاجي (محمد قطب) أو سياسة دينية (سيد قطب) بأنهم يقلصون الإسلام إلى منبر مفرد للاحتجاج ضد القوى المهيمنة في نظام العالم المعاصر. بروس لورنس، تحطيم الأسطورة، ص ٥٥. وانظر ص ٥٩ .

١٢- انظر: هنتش، الشرق المتخيل، مرجع سابق، ص ٣٠١ .

١٣- لكن مناهضة الاستعمار نفسها ولدت الإحيائية الإسلامية، والتي يستند إليها الخطاب الغربي في رسم الصورة العنيفة والأصولية للإسلام! انظر في ذلك: معتز الخطيب، الغضب الإسلامي، مرجع مشار إليه سابقا. وبروس لورنس، تحطيم الأسطورة، ص ٨٣ وما بعد. حيث يرى أن الإحيائية الإسلامية ثورة مناهضة للاستعمار وأن الأصولية أو الراديكالية تأتي ضمن سياق عالمي إمبريالي .

١٤- أفردت المؤرخة الفرنسية صوفي بسيس دراسة مهمة لنشأة الغرب وعلاقته بالآخرين. صوفي بسيس، الغرب والآخرون: قصة هيمنة، ترجمة نبيل سعد، القاهرة: دار العالم الثالث، ط ١، ٢٠٠٢م .

١٥- انظر بروس لورنس، تحطيم الأسطورة، ص ٢٢-٢٣. الذي ينتقد ذلك.

١٦- نقاد مقولة صدام الحضارات أكثر من أن يحصوا. لكن انظر إجمال تلك المواقف في: رضوان السيد، الصراع على الإسلام، بيروت: دار الكتاب العربي، ط ٢٠٠٥م، ص ١٤٢. أما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيما يخص نقد مقولة الخطر الإسلامي فانظر مثلا: فرد هاليداي، الإسلام والغرب، خرافة المواجهة: الدين والسياسة في الشرق الأوسط، ترجمة عبدالإله النعيمي، بيروت: دار الساقي، ط ١، ١٩٩٧م. وجون اسبوزيتو، التهديد الإسلامي: خرافة أم حقيقة؟، ترجمة: قاسم عبده قاسم، القاهرة: دار الشروق، ط ١، ٢٠٠٢م.

١٧- إدوارد سعيد، الاستشراق، ص ٥٢٠ - ٥٢١، وانظر: فرد دونر، اتجاهات الكتابة الغربية، ص ٢٣٨. أما برنارد لويس فيقرّ بأن دراسة الإسلام كانت لهدفين: حماية المسيحيين من التحول إلى الإسلام، ولإرسال البعثات التبشيرية المضادة لتحويل المسلمين إلى المسيحية. لكن مع انتهاء العصور الوسطى أصبح جليّا تماماً أن الهدف الأول لم يعد له ضرورة وأن الهدف الثاني يستحيل تحقيقه. برنارد لويس، الإسلام في التاريخ، ص ١٨٩.

١٨- انظر: عبدالرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوربي، القاهرة: مكتبة الأسرة، ط ١، ٢٠٠٤م .

١٩- هنتش، الشرق المتخيل، مرجع سابق، ص ٢٥١ .

٢٠- يشير تيري هنتش بصورة خاصة إلى مكسيم رودنسون وهشام جعيط في كتابه أوربا والإسلام لأن هذين الكتابين هما اللذان يوفران ـ على حد علمه ـ استعراضًا تاريخيًّا مختصرًا لرؤية الغرب للشرق، منذ العصر الوسيط حتى أيامنا هذه. إلا أنهما يقدمان في النظرة الغربية إلى الإسلام عرضًا وصفيًّا أكثر منه تحليليّا. انظر: تيري هنتش، الشرق المتخيل، مرجع سابق، ص ١٥ .

٢١- انظر: أوليفيه روا، تجربة الإسلام السياسي، ترجمة نصير مروة، بيروت: دار الساقي، ط ٢، ١٩٩٦م، ص ٤١.

٢٢- انظر مثلاً: واصف شديد، وسجورد فان، الصورة السلبية للإسلام والمسلمين في الغرب، مرجع سابق، ص ٢٩ .

٢٣- انظر: المرجع السابق، ص ٢٨ .

٢٤- المرجع السابق، ص ٢٧ .

٢٥- صموئيل هنتنغتون، صدام الحضارات،....

٢٦- هنتش، الشرق المتخيل، مرجع سابق، ص ٢٩٨ .

٢٧- إيمانويل تود، ما بعد الإمبراطورية: دراسة في تفكك النظام الأمريكي، ترجمة محمد زكريا إسماعيل، بيروت: دار الساقي، ط ١، ٢٠٠٣م، ص ٦٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢٨- انظر: معتز الخطيب، الغضب الإسلامي، مرجع مشار إليه سابقا.

٢٩- انظر: واصف شديد وسجورد فان، الصورة السلبية، ص ٢٣. لكن هنتنغتون يعبر بصراحة ـ في كتابه المشار إليه لاحقا ـ عن اعتقاده بأن العداء للآخر يلعب دورًا أساسيًا في تشكل هوية أي جماعة، ويرى أن الحروب التي خاضها الأوروبيون في العصور الوسطى وقبل بداية عصر الدولة القومية كانت ضرورية لتشكيل هوية الدول الأوروبية المختلفة .

30- Samuel P.Huntington, Who Are We: The Challenges to America's National Identity, New York: Simon & Schuster, 2004.

٣١- انظر: شديد وكوننغسفيلد، الصورة السلبية، ص ٣٨ - ٣٩ .

٣٢- الكلام جزء من مقدمته الجديدة لكتاب الاستشراق التي نشرتها الجارديان بتاريخ ٢ أغسطس ٢٠٠٣م.

33- Bernard Lewis, The Crisis of Islam: Holy War and Unholy Terror, New York: Random House, 2003

٣٤- شاريل بينارد، الإسلام الديمقراطي المدني: الشركاء والمصادر والاستراتيجيات، مؤسسة راند، ٢٠٠٣، ص ١٧ - ١٨ .

٣٥- فريد هاليداي، ساعتان هزتا العالم، مرجع مشار إليه سابقًا .

٣٦- وذلك في كتابه: «الرجل المناسب: الرئاسة المفاجئة لجورج دبليو بوش ٢٠٠٣م.

37 - Daniel Pipes, The Evil Isnt Islam, New York Post, July 30-2002.

٣٨- جويس ديفس، الإسلاميون والأنظمة العلمانية: هل العنف ضروري؟، بحث ضمن: أحمد يوسف (إعداد)، مستقبل الإسلام السياسي: وجهات نظر أمريكية، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط ١، ٢٠٠١م .

٣٩- أكبر أحمد، الإسلام تحت الحصار، بيروت، دار الساقي، ط ١، ٢٠٠٤م، ص ٣٦.

٤٠- إيمانويل تود، ما بعد الإمبراطورية ، ص ٦٧.

٤١- انظر: إدوارد سعيد، تغطية الإسلام: كيف تتحكم أجهزة الإعلام ويتحكم الخبراء في رؤيتنا لسائر بلدان العالم، ترجمة محمد عناني، القاهرة: دار رؤية، ط ١، ٢٠٠٥ .

٤٢- انظر واصف شديد، وسجورد فان، الصورة السلبية للاسلام والمسلمين، ص ٣٣ - ٣٤ .

43- Elizabeth Poole, Reporting Islam: Media Representation of British Msuslis, London: L.B Tauris, 2002

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٤٤- انظر: واصف شديد، وسجوردفان، الصورة السلبية للإسلام والمسلمين، ص ٣٤ - ٣٥ .
٤٥- انظر: فريد هاليدي، الإسلام وخرافة المواجهة، مرجع مشار إليه سابقا .
٤٦- في كتابه: الإسلام والغرب: خرافة المواجهة، والذي يقدم فيه شهادة على التنوع المدهش للعالم الإسلامي .
٤٧- بروس لورنس، تحطيم الأسطورة، ص ٣٠ .
٤٨- من الجهود المميزة في هذا المجال ما قام به طه عبد الرحمن في كتابه: الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط ١، ٢٠٠٥.
٤٩- هنتش، الشرق المتخيل، ص ٣٩٨ .
٥٠- واصف شديد، الصورة السلبية، ص ٢٥ .
٥١- نحو ما نجد لدى طارق رمضان في كتابه To Be a European Muslim (كي تكون مسلمًا أوربيًّا)، وقد عالج جملة من المسائل المتعلقة بالاندماج والولاء والمرجعية في كتابه الآخر: طارق رمضان، مسلمو الغرب ومستقبل الإسلام، ترجمة إبراهيم الشهابي، الدوحة: المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث، ط ١، ٢٠٠٥م.
٥٢- طارق رمضان، مسلمون ولكن.. أوروبيون، مجلة وجهات نظر، القاهرة: دار الشروق، عدد شباط ٢٠٠٤ .
٥٣- انظر: معتز الخطيب، المسلمون في الغرب: من الاغتراب إلى آفاق المشاركة، مجلة المنار الجديد، القاهرة، عدد ١٥، صيف ٢٠٠١م، ص ٤٤ .
٥٤- فرد دونر، اتجاهات الكتابة الغربية، ص ٢٤٤ .
٥٥- إدوار سعيد، الاستشراق، مرجع سابق، ص ٧٨ .
٥٦- هنتش، الشرق المتخيل، ص ٣٣٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com